محمد سعد..

(8) الجميلة والوحش

غابة الصنوبر..

مئات الهكتارات تجرِي بجنون ما بعد الأفق في اتجاهاته الأربع.

في محاولة منها لتأهيل سكان المنطقة اجتماعيًا واقتصاديًا، حوّلَت الدولة جزءًا إلى منتزه وطني في ثمانينيات القرن الماضي، يتوفر على مختلف وسائل الترفيه (لمحبي) الطبيعة، الشيءالذي انعكَس إيجابيًا على الأهالي، خصوصًا وأن سحر المكان جذَبَ الآلاف من السياح الذين كانوا يفِدُون على البلدة المتَاخِمَة التي نبتت فيها فنادق صغيرة كالفِطْر.

وبقِيَ الجزء الأكبر من الغابة ذو المسالك الجبلية الوعرة والمغارات الغارقة في ضباب يشبه الدخان الأبدي، محتفظًا بعذريته القاسية المتوحشة، أطلقوا على تلك المغارات اسمًا لم يبخسها حقها: مداخن الساحرات.

هذا المكان يعرف إقبالًا ضعيفًا في موسم القنص الذي يمتدّ من فاتح أكتوبر إلى أواخر شهر ديسمبر، وبعض المحاولات المحتَشِمة لهواة تسلق الجبال.

عدا ذلك فهو قلعة غامضة منيعة تغذّت هيبتها بالأساطير الشعبية منذ قرون.

كأي مكان فوق هذه الأرض عاشت الغابة على وقع أفراح الناس ومآسيهم.. آمالهم وأسرارهم المتفاوتة القذارة.

لكنها لم تعرف في تاريخها أحداثًا كالتي بدأت أطوارها في عتمة خريف 2007...

ذات مساء كئيب عثر زبون متأخّر على عاملة الاستقبال بفندق صغير، امرأة في عقدها السادس منكفِئَة على وجهها في حركة دفاعية تحت ضربات الرعب، وقد تهشّمَت جمجمتها بواسطة أداة ثقيلة تبَيّن فيما بعد أنها حجر ضخم علِقَت به بقاياها العضوية من دم تخثَّر على حفنة شعر وبقايا الدماغ.

هزت المأساة سكان البلدة المعتادين على تَرَفِ الكسل والمال السهل المنال، واستغربوا لِمَ قد يلجأ شخص إلى قتل العجوز الطيبة التي طالما أبهجَت جلساءَها بنكاتها (الغير اللائقة) وحلو حديثها؟

عاشَت وحيدة قرابة عقدَيْن من الزمن بعد اختفاء ابنتها الغامض، كان عمر الطفلة عشر سنوات، ورغم الجهود الجبارة التي بُذِلَت في البحث عنها لم يعثروا عليها، وأقفلت السلطات الملف في انتظار معطيات جديدة.

لم تُفضِ التحريات إلى نتيجة تُذكَر رغم وحشية مسرح الجريمة والآثار المقززة التي لم يكلّف القاتل نفسه عناءَ محوِها.

لم يكَد يستفيق الناس من الصدمة حتى بلغتهم أنباء الاعتداء على مزارعين شقيقين يملكان ضَيْعة تبعد حوالي عشرة كيلومترات، لم توفّق كلمة اعتداء في وصف المجزرة الشنيعة في تلك الليلة الممطرة.

بَقِي رجال الدرك الوطني (قوة عمومية تقوم بالمهام الشرطية بالمناطق النائية والجبلية) فاغِرين أفواههم كالأغبياء، بدا أن الأخ الأكبر كان يحاول تسلق أحد السلالم الخشبية هربًا من شيء ما.. هذا الشيء نزع ذراعه اليُمنَى من الكتف ونهش أعضاءه التناسلية مرورًا بنشر أحشائه على مدى عدة أمتار، شقيقه كان أكثر حظًا؛ حيث نجح في بلوغ سيارته رغم جروحه الخطيرة، لحق به مهاجمه وهشّمَ زجاج النافذة بغية الإطباق على عنقه بواسطة فكّه، لكنه نجح فقط في

قضْمِ جزءٍ من خده، باستماتة يائسة تمكنت الضحية من النفاد بجلدها في حالة يُرثَى لها.

هذه التفاصيل الأخيرة عرفها المحققون من تعيس الحظ نفسه، الذي استفاق من غيبوبة دامَت شهرًا بعد عدة عمليات جراحية حاولَت ترقيع ما تبقّى منه.

آثارَ المهاجم توجهت نحو غابة الصنوبر ثم اختفت! حتى الكلاب فقدت الرائحة!

بنَى الرجال آمالًا كبيرة على شهادته..

لكنّه بعد الاستيقاظ كان في حالة صدمة أخرَسَتْه للأبد، وعيناه كانتا تحدّقان في نقطة خفية ما بين أرضية الغرفة والسقف.

بمساعدة طبيب نفسي استطاع أن يكتب بضع كلمات كانت كافية لنشر الرعب في القلوب، وصف مهاجمهما بـ(الوحش) و(الشيء)، ثم (الشيطان)، كل الحاضرين قلقُوا من أن يكون فَقَدَ عقله وضاعت معه أسرار الفاجعة، لكن من بعض تلميحاته فهموا أن الكائن يتمتّع بنوع من الذكاء أو سعة الحيلة؛ لأن هجومَه نُفّذَ بدقة محكمة، كان مختبئًا في مكان ما وانتظر ابتعادهما عن بعضهما ليتخلص من الأقوى أولًا، ولم يترك له مجالًا لاستعمال بندقيته التي عَثَر عليها من قَبْلُ محطّمَة وخراطيشها مبعثرة، أما هو فقد لاحقَهُ بنوع من الحقد والتصميم كأنه كان في مهمة! الباقي حكاه جسده المعذب، إضافة إلى تشويه خده الأيسر اقتُلِعَت خصيتاه ووِرْكَه، حتى العظم؛ فترك للأطباء لغزًا محيرًا؛ كيف تمكّنَ من بلوغ السيارة وسياقتها كما ادّعى؟!

استُدْعِيَ رسامٌ مختصّ وعقد معه جلسات لإعطاء المخلوق هيئة من عدم، جاءت النتيجة متطابقة مع أشد الهلوسات جنونًا، حتى أن المحققين ارتابوا في الأمر وقرروا أن المحاولة لن تنجح إلا في نشر الهلع

الخرافيّ وسط ساكنة رهِينَة تقاليدها العتيقة، لكن دائمًا ما تجد الأخبار طريقها إلى الآذان لتنفذ منها إلى القلوب، وتنشر فيها سمّها على شكل واجهة غضب يتوارَى خلفها خوف بدائي، قرر الناس حمْلَ قدَرِهم بين أيديهم والقيام بحملات مطاردة للوحش الذي لا يمكنه الاختباء إلا في متاهة مداخن الساحرات، قرّرُوا استخدام تقنيةٍ توارَثُوها ضد الذئاب والخنازير البرية وباقي الضواري، التي كانت فيما مضى تهدّد سلامتهم أو ثرواتهم الفلاحية من محاصيل زراعية ورؤوس مواشي، لم يعترض العمدة على هذه المبادرة العشوائية؛ لأنه رغب بامتصاص غضب المحليين، ثم إنهم (من الناحية القانونية) لم يرتكبوا أية مخالفة؛ لأن موسم القنص ما زال مفتوحًا رغم عِلْمِ الجميع أن الأمر يختلف، وقد تُعرّض هذه التحركات الغوغائية مجريات التحقيق للخطر.

كانت هذه التقنية تقتضِي إرسال نَفَرٍ من القناصين المحنّكين متفرقين على خط عريض؛ لتغطية أكبر مساحة ممكنة من الغابة رفقة كلابهم المدربة؛ لينقّبُوا في الدغل والمغارات الجبلية محدثين ضوضاء عظيمة لإخافة الحيوانات وحثّها على الفرار في اتجاه معين إلى حتفها، وجهًا لوجه مع فوهات البنادق المتعطشة للدماء،

لم يعرّضوا مجريات التحقيق للخطر، فقط قلَبُوا معطياته رأسًا على عقب مع بعض (الأضرار الجانبية).

توغّلُوا بعد زوال ذلك اليوم في متاهة الجبل الغادرة، الغارقة في جدران صماء من الآبريات المعمّرة التي تلاصقَت جذوعها في اتحاد تام ضد نور الشمس، كل شيء هناك يتكون من مجهول وصمتٍ، وصدى مخادع يقفز على أذنِك ومنها في تزامن محير.

شرع الفريق الأول في الجزء الأول من الخطة، فيما اتخذ الباقون مواقعهم بعناية حسب تجربتهم الطويلة في الميدان، قفزَت من هنا

وهناك بعض الغزلان والأرانب المذعورة في حالة فوضَى آستَها حفيف أجنحة طيور الحجل، ونباح كلاب الصيد المنهك للأعصاب.

كانت السبابات ترتعد فوق الزناد، والكل يتساءل حول طبيعة هذا المخلوق العجيب الذي أحكم قبضته على البلدة، إن استثنينا الدّبَبَة التي انقرضت منذ عشرات السنين من المنطقة، لا يوجد حيوان بإمكانه تمزيق جسد بشري بتلك الصورة المريعة، إلا ربما.. أسدُ الجبل الأسطوري الذي ما زالت بعض أفراده تسكن المغارات البعيدة حسب روايات الرعاة.

فجأة دوّت صرخة عظيمة هزت القلوب وجعلتها في مهبّ الريح، لو كان للجحيم حلق لـ.

كتمُوا أنفاسهم ليتتبّعوا المصدر، لكنه كان في كل مكان!

استعاد الصمت حقوقَه لوهلة قصيرة..

صرخة أخرى أربكَتْهُم وجمّدَت الدم في عروقهم؛ شخص يتألم في مكان ما.. ربما أحد الرفاق، تلتها طلقات نارية عشوائية، ثم هوَى شيء ثقيل ورَخْوٌ على أحد الرجال من أعلى جرفٍ جعلَه يسقط على مؤخرته ويحسّ بتمزّق عضلي رهيب في كتفه وصدره.

كانت جثة كلبٍ قُصِمَ عموده الفقري كقشّة تافهة..

بدا أن الأدوار تغيّرَت.. من الطريدة الآن؟

الحيوانات لا تتصرّف هكذا!

حقد وخبث..

تعرّفواعلى الكلب وهرولوا تِجَاه موقع صاحبه أسفل الوادي..

عثروا عليه.. على بقاياه معلّقَة رأسًا على عقب بواسطة حبل بدائي من ألياف الأشجار.

نداءات متحشرجة ومتقطّعة عبر اللاسلكي أعلنت انتهاء العملية وحدّدَت نقطة اللقاء.

وصل المحققون إلى مسرح الجريمة، (فرضية حيوان مفترس ذهبَت أدراج الرياح).

متن هليكوبتر نقَلَت الجثة للتّشريح بعد جمع العيّنات والأدلة..

الآن فقط تساءلوا إن كان لمقتل سيدة الفندق بالباقي.

لكن المفاجآت بدأت لتوها..

منذ إنشائِه لم يسبق أن واجَهَ مركز الدّرَك المتواضع قضايا بهذا الحجم، مع ما سينجم عن الأحداث من تغطية إعلامية على الصعيد الوطني وتحريك متأجّج للرأي العام.

دون ذكر صواعق الإدارة المركزية لحساسية الموقف.. الأحداث تهدّد بانهيار اقتصادي مريع للمنطقة التي تعتمد أساسًا على النشاط السياحي.

أرسل القائد طلبًا مستعجلًا للحصول على تعزيز أمني ذي خبرة عالية..

لم تتحرك الأوضاع فعليًا، حتى لَقِيَ العمدة حتفه بمكتبه..

كان المشهد كابوسًا فظيعًا، تضمّن ذلك التوقيع المميز الذي وسم الجثث اقتلاعًا ساديًا للجهاز التناسلي والضحية على قيد الحياة؛ لأن التزيف تفجر من الأوعية الممزقة كنافورة جهنمية.

حين قدم رجال مكتب التحقيقات الوطني تعقّدَت مهمتهم بسبب الفوضى التي اعتَرَت طريقة جمع الأدلة، وتلوث العينات العضوية الموجهة إلى المختبر، لكنهم تداركوا الأمر بإعطاء أوامر صارمة للحفاظ على مسرح الجريمة الأخير (مُعَقّمًا) حتى يصل خبراؤهم الجنائيون.

بسرعة ودقّة جهّزُوا مركز عمليات مع خطة لليلة القادمة..

حين جنّ الليل جهّزوا طائرات صغيرة بدون طيار، أو ما يعرف بـ(الدرون)، وأرسلوها مزوّدة بكاميرات حرارية متطوّرة إلى مداخن الساحرات والمرتفعات المحيطة بها، انطلقَت كسربِ حشرات صامتة تغطّي مساحات شاسعة تحت أعين الكمبيوتر.

تجاهل التقنيون حياة الليل بالغابة..

بدأ اليأس يدبّ في النفوس عند النزع الأخير من الليل حين لمحوا فوق الشاشة خيالان حمراوان ينزلقان بسلاسة فوق محيطهما الحالك.

هبّ الفريق برمته لمراقبة الشاشة..

اتّجهَ ببطءٍ نحو مكان لم تستطع الكاميرا تصويره، لكنها حدّدَت موقعه طوبوغرافيًا.. استرجعَت الأجهزة فيما بقيت ثلاثة منها تنتظر.

الحسابات الهندسية وضّحَت أن الشبحين ولجَا مغارة، واستلقَيَا.. حركاتهما البطيئة رجّحَت إمكانية خلودهما للنوم.

يمكن أن يكونا مجرد متشردَّين بريئَين.. في هذه الحالة سيتم الاعتذار لهما لاحقًا، أما الآن فهما يمثلان أهم شيء يلُوح في هذا المكان المقفر.

تسلّلَت الطائرات الصغيرة إلى المغارة بهدوء مدرُوس.

أعطيَت الأوامر لإطلاق الغاز: تركيبة منوّمة تشلّ العضلات لساعات، لكنها ليست مميتة.

دقائق من الانتظار ثم انطلقت المروحية تقِل فريق التدخّل.

طوّقُوا فوهة الكهف الغارقة في الظلمة مزوّدِين بمناظير ليلية وأقنعة غاز.

كان المكان زلقًا وشديد الانحدار، وحواسهم تدق ناقوس الخطر.

قطرات الماء المتهاوية من الأعلى عذّبَت أعصابهم بصداها السريالي.

على بعد 50 مترًا تقريبًا من المدخل عثروا على هيئة امرأة متهالكة على فراش من العشب اليابس..

لا أثر للشبح الآخر..

كان الصمت الرهيب تقطعه حشرجَة أنفاسهم القلقَة عبر الأقنعة..

حين اقترب أول عنصر من المرأة قفَز عليه شيء من عدَمٍ وأطبق فكّه على قناعه بجنون بغية تمزيقه.

سقط الشرطي أرضًا وهو يحاول إخراج مسدّسه من قرابه، لكن المخلوق كان ذا قوة هائلة..

خمس طلقات 9 ملّم من رشاش الجِيب HK وضعَت حدًا لمغامرته.

حين أعطى الرجال الإشارة بانتهاء المهمة تكفّلَت مروحيتان بنقلِهم مع الجسَدَيْن الغريبين إلى أقرب مركز طبي.

مرت أيام غليان داخل خلية القيادة مع توالي المفاجآت، بعد البحث تمكّنُوا من تحديد هوية المرأة، لم تكن سوى ابنة سيدة الفندق المقتولة!

لكنهم عانوا كثيرًا قبل الحصول على أدق التفاصيل التي أمَاطَت اللثام عن جزء من اللغز.

كانت ما زالت طِفْلَة حين عرَضَتْها أمها على رجال من القرية ينهشُون براءَتها مقابل المال.

كانت تضَعُ جسدَها النحيل تحت تصرفهم المطلق، لم تعرف قطّ كراسي المدرسة، ولم يكن أحد يهتم.

فرَّت من المنزل في حالة يُرثَى لها، انتقَلَت من مكان إلى مكان باسم مستعار حتى أحالتها السلطات المحلية على أحد الملاجئ الذي تعلمت فيه القراءة والكتابة، وعرفت فيه بعض الأمان، كما كانت جدّ ممتنّة أن لا أحد تكبّدَ عناء البحث عن ماضيها.

حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي تعرّضَت فيه للاغتصاب مرة أخرى من طرف مدير الملجأ، أظلمت الدنيا في قلبها الصغير الذي تحوّل إلى شيء آخر.

غرَزَت قلمًا في إحدى عينيه وغادرت عالم البشر لغير رجعة تِجَاه الغابة آملة أن تلقَى حتفها.

هناك الْتقَت أرقّ كائن عرفته في حياتها البائسة..

كاد الجوع والبرد يفتكَان بها حين حملها إلى كهفه بالأعالي، واعتنى بها وحماها بكل ما أوتي من قوة رهيبة.

خلال جلسات التحقيق كانت تسمّيه (عائلة).. وكلما فعلَت بكَت أو ابتسمت.

ندمَت فقط على استغلاله لتحقيق مخطّط الانتقام الذي بدأته بتهشيم جمجمة والدتها.

تلاها باقي المتورّطين، بما فيهم عمدة البلدة الذي كان وقتها مزارعًا ثريًا.

الجزء الآخر من التحريات كان أكثر تعقيدًا..

كانت جثة المخلوق ممدّدَة فوق طاولة التشريح في تحدٍّ صارخ لما يسمى منطقًا، بدا أنه فرّ من فخ الزمن أو من مختبر عالم مجنون، هيئته العامة أوحَت بإنسان نياندرتال قصير القامة ذي جسد رمادي كثيف الشعر، وكتلة عضلية فولاذية متوترة حتى في غمرة الموت! لايخلو تعبير وجهه من بعض الذكاء.. بالمقابل كان مزودًا بفكّ كلّابيات!

تطابَق حمضه النووي مع ما جَمَع من مسارح تلك الجرائم، كما عُثِر على بقايا أنسجة ودماء الضحايا بين أنيابه وتحت أظافره.

اقترب فريق البحث من إقفال الملف حين انتشر خبر فرار المرأة..

الفحوصات الأوليّة أثبتَت أنها كانت حاملًا!

هل كان الوحش والد الجنين رغم خصائصه الجينية الفريدة؟

مروحيّة خاصة حلّت بعين المكان لتسلم جثته بناءً على أوامر عُليَا من العاصمة..

ربما كان سبقًا علميًا..

لكن تلك كانت قصة أخرى.